



دَرَسَات عَرَبِيَّة وَإِسْلَامِيَّة

دورية علمية محكمة

يناير ٢٠١١م

العدد الرابع (٤)

دراسات عربية وإسلامية

البناء الفني في القصة القرآنية دراسة تطبيقية على عنصر التشابه في قصة إبراهيم عليه السلام

دكتور

مصطفى عبد العاطي غنيمي

قسم الأدب والنقد - كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر بالقاهرة

البناء الفني في القصة القرآنية دراسة تطبيقية على عنصر المتشابه في قصة ابراهيم عليه السلام

د/مصطفى عبد العاطي غنيمي

مقدمة

يقف موضوع المتشابه القرآني ضمن الموضوعات المهمة في مجال الدراسات القرآنية ، لاعتماده على مناهج متعددة في تناوله ومعالجة مادته ، مما يؤدي إلى إثراء اللغة القرآنية ، ودوام فاعليتها في الوجود بأسره .

وإذا كان الأمر كذلك في المتشابه القرآني بصفة عامة ، فإن المتشابه في القصة القرآنية ، يكون له الأهمية في التناول والمعالجة لتفاعل القصة بعناصرها مع الحياة ، ناهيك عن الخبرة التاريخية والرؤية الفنية له ، فتكون الإفادة والفاعلية أعم وأشمل ، ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة الموجزة .

ولا شك أن مكانة الخليل إبراهيم بين الأنبياء ، وأبوته للعرب وبنو إسرائيل ، واختلاف بعض الأقلام حول حقيقة قصته ، كانت من الدوافع التي جعلت الباحث يبدأ مع هذه القصة دون سواها ، وإذا كنت قد تجاوزت بهذا الاختيار الترتيب التاريخي للقصة القرآنية ، فإن القرآن الكريم في أغلب قصصه ، لم يراع هذا الترتيب ، وإنما كانت الرؤية الفنية والموضوعية وراء اختيار المواقف والمشاهد ابتداء وانتهاء ، ومن وراء هذا التشابه في التقديم والتأخير ، كانت المعاني والدلالات التي حاول هذا البحث معالجتها في صبر وأناة .

ومن الداهل أن الرؤية الفنية لم تعد تعتمد على الحكاية بوصفها هدفاً أساسياً لبنائها الفني منذ قرن تقريباً ، فقد صارت الحكاية أداة في مجموعة العناصر القصصية المتعددة مثل السرد والشخصية ، لتكامل البناء الفني وصار من حق المؤلف الروائي التصرف في الأحداث تقديماً وتأخيراً .

وليس للعاقل أن يفرض على الإبداع - أي ابداع - رؤية محددة في التناول ، وإذا كانت الحقيقة التاريخية ، تفرض علينا ذلك ، فإن المنهج الفني في الأداء لا يعتمد إلا على ما يستتق تلك الأحداث ، ويؤدي إلى قوة تأثيرها

في القارئ ودوام فاعليتها ، ومن هنا كان اعتماد النص على تقديم المشاهد وتأخيرها بما يناسب حكمة النص في توطيد فاعليته وقوة تأثيره.

ولقد كان المتشابه بين هذه المشاهد مقصودا لذاته ، بل كان أداة فنية اعتمد عليها النص لإحكام رؤيته الموضوعية والتعبيرية للحدث ، ولم يكن اختلاف إبراهيم مع قومه في عبادة الأصنام في جلسة واحدة أو مكان واحد أو مع شخص واحد ، ولم يكن الحكم عليه من شخص واحد وبلهجه واحدة - فكان التشابه في القصة هو الوسيلة الوحيدة لرصد هذه الحقائق التاريخية ، ولولاها لبدا النص رؤية تسجيلية للحدث ، وفقد النص أبعاده الانسانية من التنوع والتعدد ، وهذا من أسرار فاعليته وقوة تأثيره.

والله أسأله التوفيق والسداد

التشابه والقصة القرآنية:

لمادة (شبه) في اللغة عدة معان تدل عليها ، منها المثل - فالشبه (بكسر الشين المشددة) والشبه (بفتح الشين المشددة) والشبيه: المثل والجمع أشباه وأشبه الشيء الشيء ماثلة ^(١) - والجمع مشابه على غير قياس ، كما قالوا محاسب ومذاكير ^(٢) ، وبذا يتبدى أن دلالة شبه تدل على المثل أو النظير أو المثال ، وهي أقرب ما تكون من التماثل الحسي بين المتباعين.

ومنها ما يدل على المثال إلى جانب التفاعل بين النظيرين ، ويقال تشابه الشيطان واشتبهها: أشبه كل واحد منهما صاحبه ، والمتشابهات من الأمور المشكلات ^(٣) وهذه الدلالة لا تفتقد الجانب الحسي بين الأشياء ، وإنما يضاف إليه عنصر الثنائية والاشتراك بينها ، ولا يخفى أن هذه الفاعلية جاءت لها من صيغة (فاعل) ، فقد صار للكلمة بهذه الصيغة دلالة يتفق فيها النظيران ، ودلالة أخرى تتميز إحدهما فيها على الأخرى ، ويضاف إلى الكلمة أيضاً دلالة التفاعل من دخول التاء عليها في أول الماضي (تشابه) وقدمت دلالة تفاعل (التاء) على دلالة الاشتراك (الالف) لأن مادة الكلمة في أصلها تدل على هذه التداخل أو التلبس ، وبذا تشترك أكثر من أداة في الكلمة قبل سياقها للتعبير عن معان متقاربة من التداخل ، وإذا زاد هذا التداخل كان الالتباس من الأمر ، وهو ما يدل عليه قولهم: اشتبه عليه الشيء أو شبه (بضم الشين المشددة) عليه ؛ لبس عليه ووقع في الشبهة أو الشبهات ^(٤) ، وهذه أمور غير طيبة في إدراكها لكل ناظر ، فالكشف عن معاني الأشياء ، وحدها قد يكون سهلاً ، أما المقارنات بين الأشياء وإدراك الخفايا بينها ، فهذا غير طيع لكل

(١) ابن منظور: لسان العرب مادة شبه

(٢) أبو بكر الرازي: مختار الصحاح مادة شبه

(٣) ابن منظور: لسان العرب مادة شبه

(٤) الزمخشري: أساس البلاغة مادة الشبه

ناظر - يقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: وبينهما مشبهات لا يعلمها
كثير من الناس^(١).

ولقد جاء المعنى الاصطلاحي للمتشابه عند المفسرين متقارباً مع الدلالة
اللغوية في الغاية ويمكن عرض أهمها فيما يلي:

- يرى صاحب البرهان في توجيه متشابه القرآن ، هو ما تكرر
في القرآن واتفقت ألفاظها ، لكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو
تقديم أو تأخير^(٢)

- ويرى صاحب البرهان في علوم القرآن أنه إيراد القصة
الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ، ويكثر المتشابه في إيراد
القصص الأنبياء^(٣) ولقد أورد الإمام السيوطي في الإتقان كثيراً من
الآراء الأخرى.^(٤)

وإذا كان المتشابه يقع بين ألفاظ السياق القرآني ، فإن هذه الألفاظ لا
يمكن أن تكون مكررة كما يشير إلى ذلك الرأي الأول ، وإذا كانت الكلمات
المترادفات لا يمكن الاتحاد بينها في المعنى ، وهي مفرد قبل تناولها السياقي
، فمن الصعوبة أن نحكم على كلمة أو مشهد بالتكرار أو الزيادة ، وهما
متفاعلان في سياق ، فضلاً عن إذا كان هذا السياق في القرآن الكريم.

وفي ضوء الرأيين السابقين ، لا نختلف معهما في تحديدهما للمتشابه ،
سواء في الألفاظ وما يحدث فيها من تقديم أو تأخير أو حذف أو إطناب ، أو
القصص القرآني ، لكن التقديم والتأخير والحذف لا يمكن أن يكون في

(١) البخاري: صحيحه - دار إحياء الكتب المصرية (بدون) ج ١ ص ١٩

(٢) الكرماني: البرهان في توجيه متشابه القرآن تحقيق عبد القادر أحمد عطا عيسى الحلبي

(بدون) ص ١٩ ، ٢٠

(٣) بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبو الفضل ط ١ - عيسى
الحلبي سنة ١٩٥٧ ص ١١٢

(٤) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن - ط عيسى الحلبي (بدون) ج ٣ ص ٢١٩٠

القصص القرآني بالكلمات وحدها ، وإنما يقع - أيضاً بتقديم مشهد على مشهد في قصة واحدة وفي صورة واحدة للقصة الواحدة أو تقديم مشهد على آخر في الترتيب القرآني للسور ، والمعاني في القصة لا تبدو من خلال الكلمات وحدها - فالمشاهد تعد أساسية في إدراك المعنى تقديماً وتأخيراً.

أما وقوع التشابه في إيراد القصص الأنباء في الأغلب ، فقد يكون ذلك لوقوع القرآن منجماً أى مفارقاً حتى يستقر المعنى الواحد أو المشهد الناجم عنه ، قبل أن يأتي المشهد الجديد ، وهذا يتفاعل مع معنى القصة القرآنية ، فالقصص تكون من القرآن بمعنى البيان ، يقول تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) يوسف (٣) أى (نبين لك أحسن البيان) ^(١) وتارة تكون بمعنى الأثر ، يقول تعالى: "وقالت لأختيه قصيه" (القصص: ١١) أى (اتبعي أثره) ^(٢) وتارة أخرى تكون بمعنى الحفظ ، يقال: نقصص كلامه - أى حفظة ^(٣)

ولقد أشار القرآن الكريم في عرضه للقصص بذلك في أغلبها ، لأن القرآن الكريم لا ينشد في قصصه الأزمنة والأمكنة والأشخاص والألقاب ، مما لا يتناسب مع روحه ، وإنما ينشد الركائز الأساسية والأهداف الحقيقية للقصة ، كبيان عقيدة التوحيد وإقامة الحجة الواضحة على صحتها ، وإقامة الحجة الناطقة على بطلان غيرها ، كعبادة الأوثان والكواكب والقمر ... إلخ ، وهذه أمور تتفاعل مع روحه الواعية في الدعوة ^(٤).

ولا يمكن للقيم الإيمانية العليا ، أن تكون لها جدواها في القبول والفاعلية والتأثير ، ما لم تتوافر في النص القيم الإنسانية ، خصوصاً وأن الدعوة الإسلامية حافظت كل المحافظة على جوهرها الإنساني النقي في فاعليتها بين

(١) ابن منظور: لسان العرب مادة قصص

(٢) نفسه

(٣) نفسه

(٤) يتصرف أنظر: المرأة في القصص القرآني دار السلام ٢٠٠١ م ص ١٩٩ ، ٢٠٠

الناس ، وهذا ما تتميز به القصة الإسلامية عن سواها فقد خضعت في موضوعاتها وفي طريقة عرضها وتصوير حوادثها لمقتضيات الأغراض الدينية في قالب يثير العواطف والانفعالات ، ويحرك النفوس البشرية ، حتى تستفيق إلى ما في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم من مبادئ ومثل وأهداف تتعلق بالعقيدة الصحيحة ، وتتجه إلى خلق النموذج المتكامل في شئون الدين من حيث اليقين والطاعة ، وفي شئون الدنيا من حيث التمسك بأهداف الفضيلة وغايات الاخلاق ، وطرق الخير والعمل لبناء الجماعة وتنقية السلوك من شوائب الضرر⁽¹⁾

وهذا الترقى الخلقي والإنساني تبدى في أداء متعدد في شخوصه الدينية في السورة الواحدة ، لتكون القيمة والمبدأ هي البطل الحقيقي في الأداء ، ويتلشى بدهاء التأثير بطابع القداسة العالية لهذه الشخوص في التلقي ، وإنما سمح النص الواعي لنفسه ذلك في قصة يوسف لتعدد المواقف الإنسانية فيها فهو حالم في طفولته ، يتعرض للفتنة في شبابه ويلقى في السجن ظلماً وبغياً ، وينجم عن هذا التفسخ القيمي شخصيته القوية المؤثرة في الدعوة دون تجاوز للبعد الإنساني ، ومن هذا البعد الواعي ، استدعته الضرورة لإنقاذ البلاد والعباد ، فكان أميناً عليهما من أهله أنفسهم ، فرد للملك هيئته ودفع عن النظام الفاسد آنذاك سوائه.

ومن هنا كانت القصة القرآنية ، قالباً واحداً في يوسف عليه السلام ومتعدداً ومتنوعاً وموارباً في قصص أخرى ، فالقرآن الكريم قد أخفى البعد الإنساني في إخفاء إبراهيم عليه السلام لحقيقة زوجته سارة عند دخوله على ملك مصر ، حتى لا يثير روح الشفقة الفائضة نحوه ، وهو يضحى كل هذه التضحية من أجل أهداف عليا ، فيؤثر النص بروح القداسة نحو الشخصية

(1) د. فتحي أحمد عامر: المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، منشأة المعارف - سنة

١٩٩١ ص ٢٢٨

الواعية ، فقد نالت سارة وهاجر هذا التكريم الإلهي لهما دون ذكر لذاك ، ليكون ذلك وحده الدافع القوي للبحث والتنقيب عنه ، ويخلص النص إلى الإيمان بالقدرة الإلهية وحدها في الإعجاز دون الشخوص على تقدير النص واحترامه لهم ، ومن هنا التنوع دون مراعاة للجانب التاريخي والفني في بناء الشخصية وتطوير الأحداث.

وسوف نحاول إدراك هذه القيم وغيرها في خلال هذا العرض السريع لعنصر المتشابه في أحداث القصة الخليل إبراهيم عليه السلام كما تناولها النص القرآني.

بناء الكعبة:

وفي أحداث بناء الكعبة ، يقول تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ قال إبراهيم ربي اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا نقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم^(١) (البقرة ١٢٤ : ١٣٠)

يصور هذا الحدث من سورة البقرة مشهد بناء الكعبة المشرفة ، وهذا المشهد في موقعه التاريخي ، يعد نهاية قصة الخليل إبراهيم عليه السلام ،

(١) د. إبراهيم حماده: معجم المصطلحات المسرحية - دار المعارف سنة ١٩٨٥ ص ٩٩

والعجيب أن القرآن الكريم في سرد أحداث هذه القصة ، بدأ بهذا الحدث ، وهذا التقديم والتأخير في عرض المشاهد القصصية يعد من المتشابهات ، شأنه في ذلك التقديم والتأخير في سياق ، الآيات ، وإذا كان القدماء لم ينبهوا عن ذلك ، فلعل فن القصة لم يكن قد بلغ لديهم هذا الشأن في إدراك تطور الحدث وبناء الشخصية وكرويتها ، وربما كان هذا التقديم لهذا المشهد يبرز أهمية هذا الحدث من أحداث القصة ، بإعتباره أهم الغايات التي ترمى إليها القصة فالتقديم يبدي الأهمية وهذه الأهمية لا تبدو من مجرد بناء البيت الحرام ، وإنما تمثل الأهمية - أيضاً - في بناء البلدة التي سينشأ فيها النبي الخاتم.

وهذا الحدث لم يخل من فنيات الحدث الانساني ، فهو يبدو في واقعة تحدثها شخصيات في حيز الزمان والمكان^(١) ، ولقد سبق هذا الحدث ما يسمى بالحدث السلفي وهو ما يبدي أحداثاً ماضية تهيي النفس الإنسانية للتفاعل مع الحدث المائل ، ولقد بدأ ذلك بأسلوب السرد الروائي في عرض الأحداث^(٢) ، وهذا ما نلمسه في قوله تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن لقد شهد الله لإبراهيم بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه ... وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم - مقام الوفاء ... عندئذ استحق إبراهيم تلك البشرى ، ويأتي المشهد المنشود في بناء الكعبة مصحوباً بالدعاء. "ونغمة الدعاء وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء كلها حاضرة ، كأنها تقع للحظة حية شاخصة متحركة .. وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل - رد المشهد الغائب الذاهب حاضراً يسمع ويرى ويتحرك ويشخص وتفيض منه الحياة ، أنها حقيقة (التصوير القرآني) بمعناه الصادق اللائق بالكتاب الخالد"^(٣) ، ويكشف هذا المشهد جانب الوفاء لله في شخصية الخليل إبراهيم عليه السلام.

(١) أنظر المراجع السابقة ص ٩٩

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن - مطابع الشروق سنة ١٩٨٥ ص ١١٢

(٣) المراجع السابق ص ١١٤

ولقد وقع في هذه المشاهد بعض المشتبهات الأسلوبية ، ومن ذلك دعاء إبراهيم لمكة بالأمن ولأهلها بالإيمان يقول تعالى: "رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات" (البقرة: ١٢٩) كما نجد هذا المعنى في إبراهيم في قوله: " وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وأجنبني وبنى أن نعبد الأصنام" (إبراهيم: ٣٥) ثم قال فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات" (إبراهيم: ٣٧) فلقد ذكر الأمن في البقرة ، وعقبه بالرزق ، ولم يذكر هذا التعقيب في إبراهيم ، ويؤكد الفخر الرازي أن دعاء إبراهيم ، لسكان مكة بالأمن والتوسعة بما يجلب إليها لأنها بلد لا زرع ولا غرس منه ، فلو لا الأمن لم يجلب إليها من النواحي لتعذر العيش فيها^(١) ، وبذلك يكون الأمن هو الضمان الحقيقي لوجود الرزق ، فالرزق معقب ضمناً بذكر الأمن بخصوص مكة ، ومن هنا كانت الإشارة بقوله: " هذا بلداً آمناً " وهذا البلد أمن فالتأكيد وقع لـ(آمن) في الآيتين " والتأكيد يدل على المبالغة" ... أى اجعله من البلدان الكاملة في الأمن^(٢) فلا ضمان لها في جلب الرزق إلا بذلك ، ولقد جاءت (آمن) على صيغة (فاعل) ، وصيغة (فاعل) مأخوذة من (فعل) بالمعلوم ، فالآمن مكه ليس آمناً غيبياً أوجب الله نفسه عليه ، ولو كان كذلك لقال النص: رب اجعل هذا بلداً مأموناً ، فالآمن من (آمن) يكون بوسائل بشرية موجودة قبل الإسلام ، وهي موجودة أيضاً بعده. لكنه صار لدى المسلمين واجباً ، لا يمكن أن يسود بينهم ما لم يكونوا أقوياء ، فهو حض لهم على القوة

ويؤكد الرازي أن الله تعالى قال في سورة البقرة: (بلداً آمناً) على التكرير (للبلد) وقال سبحانه في سورة إبراهيم (هذا البلد آمناً) على التعريف ، لأن الدعوة الأولى قد وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً^(٣) فيكون (بلداً) هنا

(١) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب - دار الفد - سنة ١٩٩١ ج ٤ ص ٤١١

(٢) المرجع السابق ص ٤١٢

(٣) المرجع السابق ص ٤١١

هو المفعول الثاني و(آمن) صفته ، وتكون الدعوة الثانية في سورة إبراهيم قد وقعت بعد أن صارت مكة بلداً ، (وتكون البلد مفعول أول و(آمناً) المفعول الثاني)^(١) ودلالة التعريف للبلد يبدي أن تتميز عن غيرها بالأمن ، ودلالة التنكير لا تفيد خصوص هذا الأمن بها وحدها.

وفي قوله تعالى: (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) نجد أنها تتشابه مع قوله (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) (الحج: ٢٦) وطلب الطهارة في الآية الأولى لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وفي الآية الثانية لإبراهيم وحده يدل على ضرورتها للبيت فقد وصى بها إبراهيم وطلب منه ان يوصي أولاده المخصوصين من بعده ، ومعنى الطهارة هنا خلوه من "الأوثان والأنجاس وطوائف الجنب والحائض والخبائث كلها والقيام بعدم الانصراف عنه ، طاعة لله سواء سنة أو نذراً ، ولما كان الأمر عبادة ، ارتقت الطهارة إلى منزلة هذه العبادة فصارت عهداً إلى إبراهيم يجب الوفاء به في ذريته من بعده^(٢).

مناظرته مع نمرود:

يقول تعالى: "ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين"..... وإذ قال إبراهيم أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل مهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً واعلم أن الله عزيز حكيم (البقرة: ٢٥٨ ، ٢٦٠)

(١) المرجع السابق

(٢) المرجع السابق

يؤكد ابن كثير أن مناظرة إبراهيم لنمرود بن كنعان ، كانت بعد خروجه من النار^(١) ويتوقع الفخر الرازي إلى جانب ذلك ، أنها كانت بعد تكسير الأصنام وقبل دخوله النار^(٢) وأياً كان ذلك ، فثمة تقديم في هذه المواجهة عن مواجهة إبراهيم لأبيه بالحقيقة ، كما وردت في سورة مريم ، ومواجهته لقومه ، كما جاءت في سور كثيرة ، ولقد جاء مشهد المناظرة مع نمرود واحداً في القرآن الكريم ، لكنه جاء متقدماً عن مشاهد المواجهات الأخرى ولا شك أن التقديم والتأخير في مشاهد القصة ، كما أبدينا بعد ... أو كما يزعم في هذا البحث من المتشابهات القرآنية.

ولقد تقدم هذا المشهد عن غيره ، لأنه كان نتيجة عنها ، فبعد أن عجز الوالد بولائه عن مناظرته ، وعجز القوم أمامه بالعقل والقوة المادية معاً ، كان ولابد من مناظرة نمرود لحسم أمره في كون ربه أحق من غيره بالسيادة والعلو في الأرض.

أما الحدث فقد خضع لأسلوب القرآن في عرض أحداثه ، إنه لا يفاجأ القارئ بها ، وإنما يمهّد لأحداثه بما يؤدي للتفاعل مع الحدث المراد ، ففي قوله تعالى (أن آتاه الله الملك) ما يدل على أن نمرود كان له ملك موطد ، وتؤكد الروايات أنه مكث أربعمئة سنة في ملكه^(٣) ، فهو شخصية لا تستهان بها في الدهاء والعقل ، ولقد كشف النص عن شخصية نمرود دون إبراهيم ، لأن الأول مجهول للقارئ وسوف ينتهي دوره بعدها ، وهذا ما تتميز به الرواية القرآنية، أو الرواية الفائقة ، فهي لا تجعل الحكاية الوجه الرئيسي للرواية كما يؤكد كثير من النقاد الروائيين^(٤). وإنما توظف ما يرقى إلى

(١) ابن كثير: مختصر تفسيره دار الصابوني سنة ١٩٨٨ م ١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤

(٢) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب - مكتبة الإيمان - سنة ١٩٩٢ م ٣ ص ٥٥٩

(٣) ابن كثير: مختصر تفسيره ص ٢٣٤

(٤) إ.م. فورستر: أركان القصة - ترجمة كمال عيد جاد - الهيئة العامة سنة ٢٠٠٢ ص ٤٥

مستوى الحدث ، فقد تقدمت شخصية نمروود عن سائر الشخصيات في الرواية القرآنية في مناظرة إبراهيم ، لأنه أهم هذه الشخصيات وأشدّها صدى وفاعلية في الحياة ، والأهم أولى بالتقدم في سيرته من غيره كما أن هذا التقديم يكشف في مهارة خاطفة عن شخصية إبراهيم في القوة والغلبة العقلية ، ومصدر هذه القوة وتلك الغلبة ، فهزيمة ملك البلاد أمر مروع مستفز ، قد لا يتصوره العقل وقد يعد بعض المتورطين في ذلك ضرباً من الأسطورة والوهم ، لكن القرآن يزيل كل هذه الخرافات لمعينة إبراهيم لحقيقة الموت والحياة مع ربه لإثبات أن الله هو المحي والمميت في الآية التالية ، وهي الفكرة الأولى التي جادله نمروود فيها وهي ذات الفكرة ، التي غلب بها نمروود ، وطبيعي أن تستولي هذه الفكرة على نمروود وتدهشه ، وقد بلغ هذا العمر ، واختيار إبراهيم لها وهو في مقتبل العمر ، يكشف شخصية النبوة في ترقّيها إلى أعلى سلم الحياة ، وهبوطها دون استخفاف بالعقل والمنطق في كل طور ، فقد صعد إلى نمروود بما يحسه ويشغل كل عاقل (فالإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكوّرتان في كل لحظة المعروضتان لحس الإنسان وعقله ، وهما في الوقت نفسه السر الذي يحير والذي يلجئ الإدراك البشري إلهاء إلى مصدر آخر بشري ، وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق ، ولابد من الإلتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنه كل الأحياء^(١)).

والحوار في الآية الأولى تتوفر فيه القيم الفنية للحوار ، فضلاً على تميزه بالتركيز والحدة لما لا نجده في الواقع ، ولا يتنافى معه ، فالحوار يحتّم بين شخصين ، ولقد أدى إلى تحول شخصية نمروود من الجهل إلى المعرفة ، لكن السؤال الذي ابتكره إبراهيم من الحوار الواعي الذي لا يتشابه بواقع أو شخصية سواه ، وبراعة هذا الحوار يكمن في أنه "لم يهبط إلى وصف المشاعر الذاتية للشخصية ، فتعقد القوة الحركية ، لأنها تصبح بمثابة وقف

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١ ص ٢٩٨

للحدث ، تتفصل به الشخصية عن زميلاتها في الموقف ،
وتفقد الجمل تأثيرها العملي أي وظيفتها^(١) الفنية " وإنما سما عن القدرة الموكلة
للشخصية إلى القدرة غير الموكلة ، فعجز القادر بأمره ، عن البيان بما لم
يأمره .

مناظرته مع نفسه :

تعد المناظرة مع النفس من أصعب أنواع المناظرات ولقد عرضها
القرآن الكريم في هذه القصة في قوله تعالى :

" وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ،
فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين ،
فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينني ربي لأكونن
من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت
قال يا قوم إني برئ مما تشركون " (الأنعام : ٧٧ : ٧٥)

اختلف العلماء في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن
جرير عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر ، واختار ابن جرير مستدلاً بقوله
" لئن لم يهدينني ربي " وقال محمد بن اسحق : قال ذلك حين خرج من السرب
الذي ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمrod بن كنعان ، لما كان قد أخبر
بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يده ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ ، فلما
حملت أم إبراهيم به ، وحن وضعها ذهبت إلى سرب ظاهر البلد ، فولدت فيه
إبراهيم وتركته هناك^(٢)

وسواء كانت الرواية صحيحة أم غير صحيحة ، فلا شك أن منطوق
الآية وقع في طفولة إبراهيم وقبل مناظرة قومه ، والدليل على ذلك ما يؤكد

(١) د. محمد غنيمي هلال: النقد الادبي الحديث ط دار نهضة مصر (بدون) ص ٦١٤

(٢) ابن كثير: مختصر تفسيره ص ٥٩٢

النص بعد هذه الآيات من قوله: (وحاجه قومه) ، فلما كان السياق في سورة واحدة ، جاءت المشاهد مرتبة حسب وقوعها التاريخي والفني .

ولا يمكن أن يتوفر مفهوم الحوار بالمعنى الحرفي في الآيات السابقة ، لكن الحوار كما يكون بين شخصين ، يكون بالتجوز على كلام شخص واحد^(١) ولقد ابدى الحوار تحولاً في شخصية إبراهيم من الشك إلى اليقين ، والشك طبيعة المرحلة الانسانية في حياة إبراهيم الأولى ، وهو يدل بداهة على انفعال الشخصية منذ الصبا بحقيقة الألوهية ، وزاد من هذا الانفعال ما يشاهده من قومه من عبادة النجوم والكواكب . والبابليون كانوا أساتذة في علم النجوم ، وهم واضعوا أسسه واستواء آفاقهم فرصدوا الكواكب وعينوا أماكنها ورسموا الأبراج ومنازل القمر والشمس وحسبوا الكسوف والخسوف بآلات فلكية منذ بضعة وأربعين قرناً ، وعنهم أخذ اليونان والهنود والمصريون وغيرهم من أهل التمدن في العالم القديم^(٢).

ولا شك أن هذا التعلق بالكواكب ، ارتقى بها إلى مرتبة العبادة ، (وهي الكواكب السيارة السعة المتخيرة: القمر - عطارد - والشمس - والمريخ - والمشتري - وزحل - والزهرة - وأشدهن اضاءه واترفهم عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة^(٣)) فبدأ عليه الصلاة والسلام بالأقل إلى إضاءة ثم الأوسط الأعلى ، ليشمل بذلك كل النجوم والكواكب . فالتنوع أفاد الجمع والحصر

وإذا كانت البداية بعبادة الكواكب قبل الأصنام يتنافى مع الواقع والأحداث ، فإنه أيضاً لا يتنافى مع الناحية الفنية في الدلالة ، فعبادة النجوم تعد أقوى في السيطرة من عبادة الآوثان ومناقشة عبادة النجوم والكواكب قبل الأصنام يكون أدعى ، لأن قوة تأثير النجوم في الإنسان ما زال يجد روحاً

(١) أنظر إبراهيم حمادة: معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية ص ١٠١

(٢) جورج زيدان: تاريخ التمدن الاسلامي - دار الهلال - (بدون) ج ٣ ص ١٢

(٣) ابن كثير: مختصر تفسيره ط ص ٥٩٢ ، ٥٩٣

عند البعض حتى الآن ، بينما لا يجد هذا المزاج لعبادة الاوثان ، وبذا يتبدى أن العرض الأدبي لا ينفى (العرض) التاريخي والوظيفة الجمالية لا تتناقض والوظيفة الانفعالية^(١)

بشرى اسحاق :

يقول تعالى: (ولقد أرسلنا إلى إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ. فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتا ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب - قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ولما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه. منيب يا إبراهيم اعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وأنهم آتيهم عذاب غير مردود) (هود: ٦٩ : ٧٦)

وردت هذه المشاهد في سورة هود والحجر (٥١ : ٥٦) والذاريات (٢٤ : ٢٩) وإن كانت سورة هود أكثر تفصيلاً ، ويمكن الوقوف على ضرورة عرض المشاهد المكروه في القرآن الكريم فيما يلي:

أ- اهتمام القرآن الكريم بالشخصية قبل الحدث في عرض قصصه ، فتقطيع الأحداث ، قد يضر بترتيب الأحداث وانسجامها وتفاعلها ، كما نجد في قصة يوسف عليه السلام ، لكن شخصية يوسف ذكرت في القرآن الكريم مرة واحدة وانتهت ، بينما شخصية آدم ونوح وإبراهيم تجسد روح القوة والارادة الواعية وراء أحداث هذه الشخصيات ، وهذه القوة لا تأتي من كونها شخصية ذكورية ونبوية فحسب ، وإنما يبدو بوصفها شخصيات انسانية واعية ومدركة

(١) د. جابر عصفور: زمن الرواية - الهيئة العامة سنة ١٩٩٩ ص ٢١٧

غير مطلوبة الوعي ولا مهمشة في السياق ، ومن هنا تبدو أثرها في القارئ.

ب- إن تعدد الروايات في المشهد الواحد دون اختلاف مع الأصل أو التناقض ، من طبيعة البشر ، فلا يمكن أن يتفق اثنان على سرد واحد لحدث واحد ، وإختلاف مرأى البشر في الانتقاء والاختيار بما يفعلون به ، وما يؤرقهم ، فجاء القرآن الكريم في عرضه على غرار الروح الانسانية الواعية ليكون بذلك مادة سياقية واعية للإنسان ومدركة للغته في الحياة.

ج- إن التناسق الذي تقتضيه السورة الواحدة ، لا يتفق مع عرض بعض المشاهد في القصص المعروضة ، مما يؤدي إلى ضرورة إغفال جزء منها ، وقد يجعل هذا التعدد رغبة ملحة عند الباحثين في الجمع بين هذه الصور وتأويلها ، "وهذا يعني أن عين القارئ ينبغي أن تشمل (النص) بنظرة كلية تتناولها أفقياً وعمودياً في آن واحد" (١) ، ونحاول الإشارة إلى ذلك عند الوقوف على هذه المشاهد.

قال أحمد في تفسير الزمخشري: ولقد ورد خوف إبراهيم عليه السلام في مواضع (٢):

• ورد في هذه الآية وهو دال على أنه أنما أوجس منهم خيفة لعلمه أنهم ملائكة وعدم علمه فيم جاءوا به.

• ورد في الحجر في قوله: ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلماً قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم (الحجر: ٥١ : ٥٣) فالأطمئنان لم يكن بأعلامه أنهم ملائكة ، ولكن

(١) د. محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر المعاصر - دار المعارف سنة ١٩٨٤ ص ١٢٥

(٢) الزمخشري: الكشاف ط الحلبي - بدون - ص ٢٨٠

لأنهم مبشرون له ، فدل على استشعارهم أنه علم كونهم ملائكة ، ووجل مما جاءوا فيه.

• ورد في الذاريات في قوله: " فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم" (الذاريات: ٢٨) وهو أيضا كذلك ، وهذه الدلالات كلها تبدى سبب الخوف أما كيفيته فقد ورد بصورة الحال في قوله: "وأوجس منهم خيفة" وورد بصورة المقال في قوله: " قال إنا منكم وجلون" الحجر: ٥٢ والجمع بينهما وارد لطول المسافة التي ظل القوم فيها لدى إبراهيم ، وهي المسافة بين ذبح العجل وشويه ، وإطالة الزمن يعني الحاجة الضرورية للطعام ، ورفض الطعام يؤدي إلى الخوف منهم لا محالة ، ولقد رصد النص القرآني هذا الطول الزمني بين قوله تعالى: "فجاء بعجل سمين" الذاريات: ٢٦ وقوله "فما لبث أن جاء بعجل حنيذ والآية الأولى تدل على العجل قبل ذبحه ، والثانية تدل عليه بعد طهية وتقديمه للضيفان يقول تعالى: " فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم".

أما بشرى الملائكة فقد أوردت سورة هود وسورة الذاريات أثرها على سارة في صورتين الأولى في قوله: "وامراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب" (هود ٧١) : (٧٢) والثانية في قوله: " فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم" أما سورة الحج فقد أبدت أثر الخبر على إبراهيم في قوله: " قال ابشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين وقال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون " (الحجر: ٥٤ : ٥٦)

يقول الفخر الرازي^(١) : هذا الكلام حق فلأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور:

أحدهما: أن يجهل كونه قادراً عليه.

ثانيهما: أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه.

ثالثهما: أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن الحاجة والجهل فكل هذه الأمور سبب للضلال.

وتبدو في الأحداث السابقة شخصية سارة ، فهو مؤمنة ، لم تفقد أنوثتها وحياءها وسذاجتها على كبرها ، أما إبراهيم فهو انسان يتألم لآلام سارة ، فقد كان عنده إسماعيل

وتبتعد شخصية سارة عن ما ينسبها البعض إلى شخصيتها من الغيرة المفرطة بنفي هاجر إلى الصحراء فالمرأة أى امرأة - لا تتخلص من ضررتها على هذه السن وفي هذا الجو الإيماني بالموت جوعاً في الصحراء ، فهذه أوامر الله تعالى ، لا يسأل عنها إبراهيم نفسه^(٢)

مناظرة قومه:

يقول تعالى: في سورة الأنبياء (٥١ : ٧٣)

وردت هذه الأحداث في سورة الأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات ، وتتميز المشاهد القرآنية فيما تتميز - بالوقوف على الصدق الواقعي والصدق الفني في الأداء فالنص لا ينقل لنا الأحداث نقلاً نمطياً ، وإنما (ينقل) لنا الأحداث في الوقت الذى يحددها ويرتبط بهذا ما يسعى إليه من إمتياز نوع من التاريخ الفني إذ يحاول ان يسجل التاريخ بالخروج عليه من خلال تلمس

(١) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب م ١١ ص ٤٣٩

(٢) أنظر د/ أحمد الشرقاوي: المرأة في القصص القرآني - دار السلام سنة ٢٠٠١ من ص

١٧٥ : ١٩٩

أطار فني محدد^(١) والخروج الذي نعنيه لا يعنى تجاوز الحقيقة ، وإنما يعنى التصرف بها تقويماً وتأخيراً وإيجازاً وإطناباً لتقديم حقيقة فنية قادرة على التأثير والبقاء والخلود.

ومن هنا كانت قبل هذه المشاهد في انبساطها وانكماشها.

ويمكن الوقوف على متشابهات الحدث في الصور الآتية :

أ - السؤال عن كنه المعبود:

يقول تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة إنني أراك وقومك في ضلال مبين (الأنعام: ٧٤)

ويقول أيضاً: (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) (الأنبياء: ٥٢)

ويقول أيضاً: (إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون)

ويقول كذلك: (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون)(الصافات: ٨٥)

وفي سورة الأنعام والأنبياء ذكر المعبود في صورة الجمع (الأصنام والتماثيل) مستدلاً على نفي ألوهيتها ، فالمعبود لا يكون إلا واحداً ، وفي سورة الشعراء والصافات لم يذكر المعبود ولا حقيقته ، وإنما ذكر حدث عبادتهم ، وفي الآيات كلها نجد صورة الاستفهام وهي تشير إلى التحقير وتحقير الحدث من تحقير المحدث ، يقول صاحب الكشاف في (ما هذه التماثيل) تجاهل لهم وتغاب ليصغر آلهتهم ويصغير شأنها مع علمه يتعظيمهم وإجلالهم لها وتحقير الصنم من تحقير عبادة وتحقير الحدث من تحقير المحدث^(٢).

(١) د. مصطفى عبد الغني: الإتجاه القومي في الرواية - عالم المعرفة سنة ١٩٩٤ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ،

(٢) أنظر الزمخشري: الكشاف م ٢ ص ٥٧٥

وتتعدد الأسئلة ، يؤكد حقيقة الأحداث ، لأنه لا يعقل أن إبراهيم سأل هذا السؤال مرة واحدة في حياته ثم سكت ، والتنوع يوحى بتنوع الأشخاص والمواقف وتنوع السياق المناسب لذلك ، فالإستفهام بما دون ذكر إسم الإشارة أو التماثل ، يجعل التوبيخ على العبادة دون المعبود ، وهذا أقل اللوم وأرقه ، وهذا يناسب من يجد في سؤاله خيراً ، أما التوسط في الأمور فيبدو في ذكر إسم الإشارة بعد الإستفهام بدون هاء التثنية ، فهذا إمعان في التساؤل عن العبادة.

أما سؤال سورة الأنبياء فإنه يجمع بين العابد والعبادة والمعبود وهذا أوقع في التوبيخ ، لكن الآية الأولى رصدت الوهم والتوهم في عبادة الإنسان وخطرها على العقل.

ب- الرد على السؤال:

يقول تعالى (إني أراك وقومك في ضلال مبين) (الأنعام: ٧٤)

ويقول أيضاً: "قالوا وجدنا آبائنا لها عبيد قال لقد كنتم أنتم وأبائكم في ضلال مبين" (الأنبياء ٥٣ ، ٥٤)

ويقول أيضاً: قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعوكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آبائنا كذلك يفعلون قالوا أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وأبائكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين (الشعراء: ٧١: ٧٧)

ويلاحظ على الإجابة ، الخلط بين أسلوب السرد وأسلوب الحوار ، وهذا التناقض في الآراء ، مما يتميز به النص القرآني ، وجمال الصورة السردية أو الحوارية ، يكون في موقعها في السياق ، في سورة الانعام نجد الصورة السردية ، فقد رأى إبراهيم أنهم على ضلال في عبادتهم ، وهذا الزعم عند إبراهيم ، كان أداة فنية لبيان مصادره وأصوله التي بني عليه رؤيته ،

ليتحول رؤية إلى حقيقة من خلال التحول الفني في بناء الشخصية لأحداث عبادة الكواكب والنجوم.

وفي آية الانبياء نجد الجملة الحوارية ، فقد رد القوم باتباع آبائهم ، فما أتيح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل ، وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شيء وجادون في نصرته مذهبهم ويكفي أهل التقليد سبة أن عبده الأصنام منهم".^(١)

وبذا يبين إبراهيم عليه السلام أن الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به^(٢)

ج- تكسير الأصنام:

يقول تعالى: " وبالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون " (الأنبياء: ٥٧ : ٥٨)

ويقول أيضاً: فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ إلى آلهتهم فقال إلا تأكلون ما لكم لا تتطقون فراغ عليهم عليهم ضرباً باليمين"(الصافات: ٨٨: ٩٣)

يقول تعالى: " قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون" (الشعراء: ٧٢ : ٧٣)

يقول الفخرى الرازي^(٣):

أعلم أن القوم لما أوهمو أنه إنما خاطبهم به في أصنامهم ، أظهر عليه السلام ما يعلمون أنه مجد في اظهار الحق الذي هو التوحيد وذلك بالقول أولاً: وبالفعل ثانياً.

(١) المرجع السابق: ص ٥٧٥

(٢) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب م ١١ ص ١٤٣

(٣) المرجع السابق: ص ١٤٣

وبذلك اعتمد إبراهيم في حدث تكسيره للالصنام على تبرير موقفه من تكسيره أولاً ، قبل أن ينتقل إلى الفعل ، والفرق في ذلك كبير ، أنه لا يرغب التكسير لأرغام الناس اتباعاً ولا استنتاجه ، ومنعهم إذا لم يتبعوه ، وإنما كان من ذلك إبطال الخوف والمزاعم من منها ، ففي هذا للعقل والرشد والفكر ، وهذا يضرب للإنسان بما هو إنسان من الدرجة الأولى.

د- السؤال عن الفاعل:

يقول تعالى: " قالوا أنت فعلت هذا بالهتتا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " (الأنبياء ٦٢ : ٦٣)
ويقول أيضاً: (فاقبلوا عليه يرفون قالوا أتعبدون ما تتحتون والله خلقكم وما تعملون)(الصافات: ٩٦: ٦٥)

وعلى هذه الآيات برد سؤالان^(١)

الأول: كيف نسب العقل إلى الصنم الكبير وهو الكاسر لهم ؟

والثاني: أن الآية الأولى تدل على أنهم ما عرفوا أنه الكاسر لها ، والثانية تدل على أنهم عرفوا فكيف التوفيق بينهما ؟ والمسألة فيما نزع لا تقوم على التناقض في الأقوال ، حتى نلجأ إلى التأويل ، والقول بالتناقض يستبعد تماماً من طبيعة القصة في القرآن الكريم ، فالحدث في الآية جاء في سياق الشك في الفاعل والحدث في الآية الثانية جاء في سياق اليقين منه ، والتحول من الشك إلى اليقين في السرد القصصي عمليه فنية ، لإقناع المشاهد بالحقيقية المشاهدة ، فلا يمكن التيقن من الفاعل عند سماع الفعل لدى الأسوياء من البشر ، والأمر عند العقلاء ينتقل من الشك إلى اليقين ، إذا ما ثبت حقيقة شكوكهم.

(١) زكي محمد أبو سريع: جامع البيان في متشابه القرآن ط ١ سنة ١٩٩٦ ص ٥٠

هـ- التحول:

يقول تعالى: (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا أنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت هؤلاء ينطقون)(الأنبياء: ٦٤ : ٦٥)

وهنا تبدو لحظة التحويل وهو ما يسمى بالتعرف ، وبه تتحول الشخصية من الجهل إلى المعرفة^(١) فقد اكتشف المشركون شيئاً كانوا يجهلون في حقيقة الألوهية ولما نبههم إبراهيم "بما أورده من قبح طريقتهم تنبهوا فعلموا أن عبادة الأصنام باطلة ، وأنهم على غرور وجهل في ذلك ... فرجعوا إلى أنفسهم فلاموها وقالوا إنكم أنتم الظالمون لإبراهيم حيث تزعمون كسرها مع أن الفأس بين يدي الصنم الكبير^(٢)

وحرف العطف (ثم) ، يدل على فترة زمنية ليست بالقصيرة ، رجع فيها القوم إلى الصواب ، وعلى بيان القرآن لتلك المساحة الزمنية بدقة ، إلا أنه يخفي سبب الانتكاسة التي تعرض لها القوم ، ويمعن في الاخفاء ، بمجئ فعلها مبنياً للمجهول (ثم نكسوا) وهذا يعطي القارئ حرية التفكير مع القصة في شخصيات أخرى وراء الأحداث ، وبذلك تبنى الفكرة القرآنية في أدائها على التخيل الفني الراقي ، وهذه ثمرة من ثمار النصوص الواعية ، توقد الزهن وتبعث الملكات ولفظ (أف) للتضجر " اضجره ما رأى من قيامهم على عبادتهم بعد إنقضاء عذرهم ، وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل ، فتأفف بهم^(٣)

و- الحكم:

يقول تعالى: " قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين " (الأنبياء: ٦٨) ويقول أيضاً: " فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه "

(١) د. إبراهيم حمادة: معجم المصطلحات المسرحية ص ٧٥

(٢) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب م ١١ ص ١٥٠

(٣) الفخر الرازي: مفاتيح الغيب م ١١ ص ١٥٢

ويقول تعالى: " قالوا ابنوا له بنيانا وألقوه في الجحيم " (الصفافات: ٩٧)
وهنا ينفرد إبراهيم بالأحداث ومشاعر الشفقة نحوه وحده ، وتبدو
الرواية التاريخية في اهتمامها بالشخصية الواعية لنشاند قيم انسانية عليا ،
لا تمت لسلطان الفرد وأنايته من قريب أو بعيد ، ولقد كان ثمت بعض النقاد
الروائيين يعارضون الرواية التاريخية التي تجعل " الشخصية كل شيء في
العمل السردى بعامه، والعمل الروائي بخاصة تشبيها لها بسلطان الفرد الذى
كان يؤثر في الأحداث" ^(١) والحقيقة أن إبراهيم كان يدافع عن الإنسان المقهور
أمام هذا السلطان الحائر ، وليس هناك صورة للجوء في الأحكام يمكن أن
يتخيلها الانسان أبشع من صورة النيران، وليس هناك صورة للقهر يمكن أن
تقع على شخصية أخرى ، وبذا لا تستغل مساحة الشخصية في الرواية
إستغلالاً منافياً للموضوع ، فإن تقتيت الشخصية في العمل الفني إلى جزئيات
وتلبس الفعل روح الشخصية وحدة ، يضر للاحاقه بالعمل الفني، بل يضر لا
محالة بالوجود الانساني بأسره.

والصورة المعروضة للحكم تبدي اتفاق الجميع على موت إبراهيم واختلافهم في
الكيفية وتحطيم حياته هنا ، كان في مقابل تحطيم العقيدة الوثنية (وانصروا آلهتكم) فقد
ضاعت قيمتهم عند الناس ، أما الاختلاف فكان بين القتل أو الحرق ، ثم اتفق الجميع
على الحرق ، ولم يكن الحرق المقصود ذلك الحرق الذى يفضى إلى الهلاك بل أرادوا
تسلط عاطفة التشفي والنقمة بين الناس ، وهي عاطفة بشعه لا تبقى ولا تتركز لما اجتمع
نمرود وقومه لإحراق إبراهيم ، حبسوه في بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة ثم جمعوا له
الحطب الكثير ، حتى أن المرأة لو مرضت قالت : إن عافاني ربي لأجمعن حطباً
لإبراهيم ، ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوماً ، فلما اشتعلت النار ، اشتدت

(١) د. عبد الملك مرتاض : في نظريه الرواية.. بحث في تقنيات السرد . عالم المعرفة .

ديسمبر ١٩٧٨ ص (٣٥)

وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصى الهواء لاحترق ، ثم أخذوا إبراهيم على رأس البنيان وقيده ، ثم اتخذوا منجنيقا ووضعوه فيه مقيداً مغلولاً^(١).

س- الحكم الالهي:

يقول تعالى: " قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم " (الانبياء: ٦٩)
ويقول ايضا: " فأناه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون " (العنكبوت: ٢٤)

ويقول أيضاً: " فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين " (الصافات: ٩٨)

والنتيجة الذي يبدىها هذا الحكم ، نجا إبراهيم الكاملة من النار، وهو حكم يناقض الحكم السابق ، ويعاديه كل المعادة (وأن قلت كيف بردت النار وهي نار ؟ قلت: نزع الله منها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال ، كما كانت والله على كل شيء قدير ، ويجوز أن يدفع بقدرته عن جسم إبراهيم أذى حرها ويذيقه فيها عكس ذلك كما يفعل بخزنة جهنم^(٢).

ولقد احتسب النص من امتداد ذلك إلى غيره حتى لا يركن امرؤ سواه إلى غير الاسباب بقوله: (على إبراهيم) فلا يمكن امتداد ذلك إلي سواه ، بالارتكان إلى دون الأسباب مطلقاً.

ويبدو في النص أن الأحداث قد تطورت ، أو تمت على غير نظرية السبب والمسبب ، والتطور في البناء الدرامي من شأنه دفع الأحداث للنمو والاطراد اننبثاقاً قائماً على نظرية السبب والمسبب^(٣)، والحل الفني يبدو من خلال الصراع الدرامي فالصراع الدرامي عبارة عن "مناضلة بين قوتين

(١) المرجع السابق: ص ١٤٣

(٢) الزمخشري: الكشف م ٢ ص ٥٧٨

(٣) إبراهيم حمادة: معجم المصطلحات المسرحية ص ٧٣

متعارضتين ، ينمو بمقتضى تصادمهما الحدث الدرامي⁽¹⁾ ولم يكن إبراهيم عليه السلام مناضلاً من خلال الأحداث بنفسه مطلقاً ، ولم يكن القوم مناضلين من خلال الأحداث بأنفسهم مطلقاً ، فثمة صراع خفي بين قوة الآلهة المعبودة من القوم ، وقوة الإله المعبود من إبراهيم ، فكان ولا بد من حسم هذا الصراع النفسي بينهما على وجه الحقيقة والعلن ، فالصراع قد حسم الموقف أو الحدث حسماً فنياً ، وبذا تكون الدراما المعبرة دراما واعية وعيا فنيا من منطق الأحداث الحقيقية والصراع القائم بينهما ، ويكون المعجزة لها منطقها الفني والتأويلي الذي لا يتصادم مع العقل ولا مع الفن معاً.

وبعد هذه أغلب المشاهد التي تناولها القرآن الكريم في قصة إبراهيم عليه السلام وتتميز هذه القصة مثل القصص القرآني ، بالبعد الإنساني في الأداء حتى معجزاتها فقد كانت ضرورة فنية أدت إلى وجودها ، وبذا لم يغب المنطق العقلي ، ولا الضرورة الفنية عن طابع المعجزة ذاتها.

ولقد اهتمت القصة القرآنية بالشخصية دون إلحاق للموقف أو الفعل أو تسيد لها وترفع أو تقديس ، فالشخصية القرآنية منزهة عن ذلك ، ومن هنا كان فاعليتها الدرامية في الأداء لمحافظتها على البعد الإنساني والزمان والمكان وكل عناصر القصة الفنية . ولا يمكن ان تكون هذه الكلمات اهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث وهي كالتالي :

- اهتمت القصة القرآنية بعنصر الشخصية مثل اهتمامها بالحكاية ، ولعل السبب في ذلك يعود الي طبيعة القرآن في عرض قصصه ، إنه لا يؤرخ لقصة من قصصه وانما يعجز بعرضه للقصة كل مؤرخ ، وهذه طبيعة القرآن في كل معجزاته ، وبذا يعطي النص مساحة للمؤرخ للبحث عن الحقيقة ، ويعطي غيره مساحة للتأويل من خلال العرض الفني للقصة .

- لقد كان للصدق الفني والصدق الواقعي في القصص القرآني أثرهما في إثراء عناصر الأداء ، فصار للمتشابه القرآني فاعليته تقديماً وتأخيراً من خلال الأحداث ، وصارت له معان ، لا يمكن أن يكون للسياق فاعليته بدونها.
- إن تقديم أحداث الملك النمرود مع الخليل إبراهيم في سورة البقرة عن سائر أحداث القصة المروعة مثل مناجاة الكواكب والنجاة من النار ، يؤكد أن الغلبة المنطقية والعقلية أهم في القرآن الكريم من الغلبة المادية .
- إن التقديم والتأخير في أحداث القصة الواعية ، لايعني الخروج عن الحقيقة وإنما يعني التصرف فيها بما يؤدي بالنص الي فاعليته وقوة تأثيره ، وهذا العنصر من الأداة ، لا يتوفر إلا في النصوص القادرة علي الحياة .
- إن ذكرى بشري ميلاد إسحاق عليه السلام يتناسب مع طبيعة الروح اليهودية وغيرها ، أما الروح العربية ، فلا تتناسب مع هذه الروح ، ولقد راعي النص الواعي هذا التفاوت في طبيعة الشخصيات الإنسانية ، فلقد كان الاعتناء بإسماعيل عليه السلام بأفعاله ومواقفه دون ذكر حدث ميلاده .
- يبين المتشابه في حدث حمل السيدة سارة رضي الله عنها ، أن العقل لا يكون مطلقاً أو مقيداً بين الرجل والمرأة ، فالأمر في ذلك نسبي ، فقد بدا إبراهيم في الحدث قانطاً يائساً من حمل سارة بعد هرمها ، بينما بدت سارة متعجبة من هذا الحدث ، والعجب من قدرة الله أقل وطأة من اليأس والقنوط ، والقرآن الكريم يجعل بذلك شخصية إبراهيم شخصية إنسانية خالصة ، تقنط مثلما يقنط البشر، وتعتقد مثلما يعتقدون ، فلم يكن دخوله في النار بذلك سلباً لعقله ومنطقه ، فقد كان مدركاً لكل أفعاله واعياً بها كل الوعي ، ومن هنا أيضاً يبدو لنا طبيعته الإنسانية في مخاوفه من الضيفان عند امتناعهم عن الطعام ، وطبيعته الإنسانية أيضاً في عدم مخاوفه من النيران .!!، فالنيران المادية تكون أرحم أحياناً من نيران الغدر الإنسانية .!!

المصادر والمراجع

- ١- إبراهيم حمادة (الدكتور): معجم المصطلحات المسرحية ، دار المعارف
سنة (١٩٨٢)
- ٢- أحمد الشرقاوي (الدكتور): المرأة في القصص القرآني ، دار السلام سنة
٢٠٠١
- ٣- ابن كثير: مختصر تفسير ط الصابوني سنة ١٩٨٨
- ٤- ابن منظور: لسان العرب دار المعارف سنة ١٩٨٠
- ٥- أبو بكر الرازي: مختار الصحاح ، الهيئة العامة سنة ١٩٧٦
- ٦- البخاري: صحيحه ، دار احياء الكتب المصرية ، عيسى الحلبي (بدون)
- ٧- بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل
ط ١ عيسى الحلبي ، سنة ١٩٥٧
- ٨- البقاعي (الإمام) : نظم الدرر في تناسب السور ، مكتبة الأزهر تحت رقم
٩٥٠ تفسير
- ٩- جابر عصفور (الدكتور) زمن الرواية ، الهيئة العامة سنة ١٩٩٩
- ١٠- جورج زيدان: تاريخ التحديد الاسلامي ، دار الهلال (بدون)
- ١١- زكي محمد ابو سريع ، جامع البيان في متشابه القرآن ط الاخوة الاشقاء
سنة ١٩٩٦
- ١٢- الزمخشري: الكشاف ط عيسى الحلبي (بدون)
- ١٣- سيد قطب: في ظلال القرآن ، دار الشروق ، ط ١١ سنة ١٩٨٥
- ١٤- السيوطي: الاتقان في علوم القرآن ط عيسى الحلبي ، (بدون)
- ١٥- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز ، تحقيق محمود محمد شاكر ط
المدني ، ١٩٩٢

- ١٦- فتوح أحمد محمد (الدكتور) : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، دار المعارف سنة ١٩٨٤
- ١٧- فتحي أحمد عامر (الدكتور) : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ، منشأة المعارف سنة ١٩٩١
- ١٨- فورستر م: أركان القصة ، ترجمة كمال عيد جاد ، دار الهيئة العامة سنة ٢٠٠٢
- ١٩- الفخر الرازي: مفاتيح الغيب ، دار الغد سنة ١٩٩١
- ٢٠- الكرمانلي: البرهان في توجيه منشأة القرآن ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا وعيسى الحلبي (بدون)
- ٢١- محمد غنيمي هلال (الدكتور): النقد الأدبي الحديث ط ، نهضة مصر (بدون)
- ٢٢- مصطفى عبد العاطي (الدكتور): الرمزية في المسرحية المصرية (مخطوط) كلية اللغة العربية بالقاهرة ، جامعة الأزهر سنة ١٩٩٤
- ٢٣- مصطفى عبد الغني (الدكتور) الاتجاه القومي في الرواية عالم المعرفة سنة ١٩٩٤.